الظاهرة الصوتية وثقافة الهدير ! (*)

هذا العنوان محض تعبير مجازى عما انتشر وتفشى حتى صار ظاهرة وطبعاً ملأ حياتنا صخباً وضجيجاً وضوضاءً وصياحاً وهتافاً وهياجاً وإهاجةً وثورةً وإثارةً واستثارةً وانفعالاً واصطناعاً وانفلاتاً وتشويشاً وتهويشاً ومصادرةً وعنتاً وإرهاباً.. حل هذا الهدير محل العقل والحكمة والروية والفكر والتأمل والفعل والمعنى والهدف والغاية، وصار صخب الهدير متصلاً فى حياتنا اتصالاً يطارد العاقلين الباحثين عن حكمة الفكر وتأمل النظر الهادئ وقيمة المعنى وبصيرة الفؤاد ونفاذ الرؤية واعتدال العاطفة وسواء الفهم وسلامة النية والضمير !

ثقافة الهدير ظاهرة صوتية، تحل فيها الحناجر محل العقول.. والانصراف إلى الحنجرة وما تخرجه قد لا يكون به بأس إذا عنيت الحنجرة بالصلة الواجبة بينها وبين معطيات العقل، ولكن تأتى الطامة حين تنفصم الحناجر من جميع المعطيات إلاّ ما تقذف به من إخراج.. هذا الإخراج مادام مفصوما عن العقل، لا يبقى له من ألبسة التزيين وفرض النفس، إلاّ العلو بالطبقات الصوتية، والإكثار المزدحم من الكلمات التى تطلقها.. الطامة الأكبر حين تستخدم الحناجر كوسيلة للكتابة فتخطف لغة

---

* الأهرام ٢٠٠٨/٨/٢١

القلم من العقل وتحتويها فى قاموسها القائم على الصخب والضجيج والهدير.. لا تظننى أبالغ.. لقد مر كثير من أرباب القلم بمراحل فى الكتابة أو النظم كانت الصياغة فيها أقرب إلى الخطابة، ولم يكن فى ذلك كل البأس مادام موصولا بقدر أو بآخر بمعطيات العقل والفهم.. ومع النضج والتطور ودعوات كثيرة واعية كدعوة يحيى حقى ومحمد مندور وغيرهما إلى الالتفات إلى جرس العين وعدم الانحصار فى جرس الأذن - توارت شيئا فشيئا لغة الخطابة من أسلوب الكتابة، وزادت شيئاً فشيئا معطيات العقل، وكان الظن أننا تخلصنا من الآفة الصوتية فى الكتابة، ولكنها عادت للأسف لتجنح مع ثقافة الهدير جنوحاً بعيدًا، حتى انفلتت معاييرها من جميع المقاييس المتفق عليها لأدب الكلمة !

مع ثقافة الهدير، احتلت الحناجر الصاخبة كل مساحة الصورة أو المشهد، فى المشافهة وهى أكثر، وفى الكتابة أيضا.. حسبك لترى أزمة ما صرنا إليه أن تصغى للصخب والضوضاء والهدير الذى طال للأسف كل شىء فى حياتنا.. حسبك أن تتأمل ضوضاء الشوارع، وصياح الباعة، وميكروفونات السرادقات، وارتفاع الصوت، وانفلات الكلمة، وحلول الأسلوب الخطابى الزاعق محل لغة العقل والمنطق.. فى فوضى ما يكتب على السيارات.. المانشيتات المثيرة بلا موضوع أو مضمون.. هوى المبالغة والتضخيم ومصادرة الآخر بالإرهاب والتخويف.. حلول الدجل والفهلوة محل الاتزان والوقار، وصخب الوعظ بالحناجر لإثارة العواطف بدلاً من مخاطبة العقول.. فوضى وافتعال المشاكل والأزمات.. توارى العقل وحلول الكلمات محل الأفعال.. ضياع المنطق واستسهال الشتم والسباب.. علو شعار : " خذوهم بالصوت ليغلبوكم " ؟!!.. حتى

صار فلسفة وأسلوباً معتنقاً لأصحاب الحناجر الذين يشهرون الخواء وفراغ العقل والحجة !

ثقافة الهدير لم تدع شيئاً إلاّ طالته، طالت المبادئ والأسس وخلطت الأوراق بين حرية الرأى والنقد، وبين التطاول والشتم والسباب والقذف والإهانة والتحقير.. ونجحت فى فرض تراجع تشريعى فرّغ الجزاء من مضمونه.. انطلق الهدير بغير حساب، ومارس الكثيرون حرية السباب والشتائم والافتراء والاختلاق، وفتح بعضهم منافذ خلفية لتلقى الرشاوى والجعول لوقف الحملات الصحيحة أو الباطلة على منطق " إبعد عن الشر وغنى له " !!.. ضاع الوقار وتوارى، وانسحب المنطق والحجة مخافة الرذاذ والطلقات الطائشة أو المقصودة !.. وسط الهدير لم يعد أحد يبالى بالفارق الواجب بين حرية التعبير وحرية السباب والإهانة والإدماء !.. لم يتورع الشتامون وسط ثقافة الهدير عن اختلاق الأكاذيب، بينما استباح الصغار أو أمراء التكفير – التطاول على الأزهر وعلى الكنيسة، ولم تنج سقوف الأديان ذاتها من هذا الهدير.. يتحدث من يريد عن كتاب – لم يقرأه – عنوانه : " سقوط أو استقالة الإله "، ملىء بالازدراء للذات الإلهية والأنبياء والرسل، وجعل للرب بنتا تناقشه وتراجعه، ومع أن مجمع البحوث الإسلامية اكتفى بإبداء الرأى فيما تضمنه، ورفع أمر جريمة ازدراء الأديان السماوية الثلاثة إلى الجهة المختصة، دون أن يكفر أحداً، إلاّ أن أحداً من أصحاب الهدير لم يكلف نفسه عناء قراءة ما تضمنه الكتاب الملىء بازدراء الأديان ولا ما كتبه المجمع، ومع ذلك يستبيح التطاول على علماء أجلاء أخلصوا لله والحقيقة، ويطالب دون أن

يقرأ كتاباً فى الدين، ولعله لم يقرأ القرآن المجيد، بإلغاء هذا المجمع وتسريح علمائه !!!

لم تعد هناك حصانة وسط هذا الهدير، لا لدين، ولا لقيمة، ولا لرمز، ولا لمبدأ، ولا لمنطق، ولا لعقل.. اختلط الحابل بالنابل، وصار هدير التطاول طاغيا على العقل والعقلاء، وعلى المنطق والمناطقة، وعلى الأدب والمتأدبين !!!

من ثقافة الهدير تمايع وانبهام وتسطح وهلامية وعدم ضبط أو تحديد معانى الكلمات، ومع تمدد واتساع ومطاطية الألفاظ - يتوارى العقل والمنطق ويغيب الفهم، وتسود لغة الصخب والضجيج ليحل باجتياحاته وتجاوزاته - محل الصدق والنظر المبنى على انضباط اللغة بالتعبير وسلامة الاستقبال وإعمال العقل. من المفارقات اللافتة أن المشرع نفسه قد تراجع أمام فرط اتساع استخدام المتطفلين أو المتمسحين أو المطاريد للقب المستشار، وبدلاً من أن يُلزم هؤلاء بضبط ما يتشحون به من ألقاب أو ينتحلونه من صفات طلبا للمكانة أو خداع الناس، وبدلاً من هيبة وضبط النظام والقانون، رأينا القانون الأخير للسلطة القضائية يلغى لقب "مستشار" الذى تهرأ من استخدام كل من هب ودب، ويستخدم بدله لقب قاضٍ بتعميم ينطبق على كافة درجات القضاة. فى تراجع غير محمود لا هو أوقف هدير فوضى استخدام الألقاب والصفات بغير ضابط، ولا قدم لرجال القضاء واقعا قابلا للتطبيق يمكنهم قبوله، فظلت الأحوال - رغم القانون! - على ما هى عليه !!!

بثقافة الهدير، هجرنا أو كدنا نهجر كوميديا المواقف، وتحولنا إلى كوميديا الصخب والكلمات الهابطة والطبل والزمر الذى أدخلناه أحيانا إلى

خشبة المسرح التى لم تعد تشعر بتقاليدها إلاّ فى المسرح القومى والنادر جدا من المسارح الخاصة.. تستطيع أن ترى أثر ثقافة الهدير حين تقارن بين مسرحيات وأبطال الكوميديا الراحلين.. الكسار أو الريحانى أو إسماعيل ياسين أو بشارة واكيم أو حسن فائق أو القصرى أو المهندس ومدبولى وقليلين من الحاليين لحقوا بمدرستهم، وبين من طرأوا على الكوميديا بلغة وأسلوب هابط هادر ومزرٍ لم يسبق له مثيل !

حتى التعليق على المباريات الرياضية وخاصة كرة القدم..يُصاب المتابعون بالحيرة حين يسمعون زعيق وصخب وتعبيرات المعلقين، وشهوة الكلام للكلام بعيداً عن المشهد المعروض.. ما إن يمسك المعلق بالميكروفون لوصف مباراة مرئية على الشاشة وفى متناول المشاهدين، إلاّ ويمسك بتلابيبهم.. لا يريد أن يترك لهم لحظة واحدة لمتعة المشاهدة إلاّ ويلاحقهم بالكلام فى أى شىء إلا التعليق على المشهد المرئى.. هات يا تعالم وأستذة وهات يا مجاملات وهات يا تنطع وتقعر ورغى فى الفاضى بدون المليان.. بعض المعلقين يدير معركة حربية حقيقية - بالكلام ! - إذا كان فريق دولته يلعب مع فريق أجنبى.. لا يكف عن الانفعال والصخب والضجيج والهتاف والمناداة على اللاعبين بل وتوجيههم ! ولكن الأغرب ما يديره بعض المعلقين من معارك تعليقا على مباريات بين دول أجنبية لا تشارك فيها دولة المعلق.. فى البطولة الأوروبية الأخيرة تعمدت أن أتنقل بين معلقينا ومعلقى دولتى المباراة، فوجدت المعلق الأجنبى صاحب المباراة لا يفارقه هدوؤه ولا رزانته، يتكلم بحساب بلا انفعال.. بينما معلقنا الذى لا ناقة له فى المباراة ولا جمل، هائج صاخب مائج يصيح ويهتف ويحتقن ويهلل ويتحسر مع أن دوره محصور فى مساعدة

المشاهدين ببيان موجز أو شرح لعبة أو نقل ما تعجز الكاميرا عن نقلـه.. الأدهى أن يتخيل المعلق أنه بصراخه سيدفع الكرة نحو المرمى أو يوقـف هدفاً.. صارت الشكوى عامة من هذا الهدير حتى أن كثيراً من المشاهدين يضطرون إلى إغلاق الصوت والاكتفاء بالصورة ليحموا أنفسهم من لغـو وصخب وهدير المعلق !!

من ثقافة الهدير المكتوب، ما تابعته لأسابيع على صفحات إحـدى الصحف الخاصة، من إفراد عناوين ضخمة، ومساحات كبيـرة، وعلـى الصفحة الأولى أو الصفحـات الرئيسية، للإعلان عن كيان فى الطريق لم يشأ صاحبه حتى أن يعلـن عن اسمـه، أو اسم أحد ممن معه فيه، فـى مشهد لا يخطئ الفاهم أنه إعلان عن شيء لا وجـود لـه فـى المـشهد الجارى.. ومع ذلك يمضى الهدير المكتوب فى تحليلات وتعليقات لتنطوى بعد أسابيع صفحة هذه الإعلانات الهادرة، ودون أن تتوقف الصحيفة مـع نفسها، أو يتوقف أحد المتابعين ليسأل سؤالاً واجبا يفرض نفـسه : لمـاذا كانت كل هذه المساحات والتغطيات للغو لا يخطئ أحد أنه هدير مآله إلى لا شيء !

هدير عجيب غريب يؤكد غياب العقل، نرى هدير فضائيات وبعـض صحف تصدر نماذج ما أنزل الله بهـا من سلطـان، لا علـم ولا ثقافـة ولا تاريخ ولا قدرات ولا مكنات، ومع ذلك - لمـاذا لـست أدرى ؟!! - تصدر إلى الناس صباح مساء، هذا للرئاسة، وهذا للوصاية على القـضايا الكبرى، وهذا لتأسيس حزب !! يتوالى الكلام واللغو والهـدير بـلا فعـل ولا ناتج، والناس من السـأم تتابـع مـن باب التسلية أو مقاومـة الملـل أو إزجاء وقت الفراغ، والإعلام الأحول يتصيد ما يـشبع نهـم النـاس - بالهدير - إلى ما لا طائل منه، وتضيع وسط هذا الهدير قيم العقل وثقافـة

العمل والفعل والجد وتنفرط مع هذا كله المنظومة الأخلاقية، وتعيش الأمة واقعاً مصطنعاً غير واقعها الحقيقى !!!